



في مثل هذه الساعات تماماً ومن ذاكرة الموت التي أحفظ
كنت أخط الرحال في مخيم بدون أي مقومات للحياة
ذكرني بقصص العبيد والإغريق.
كنت أشعر بالنصر صباحاً عندما رميت سترة النجاة على الشاطئ،
نصرٌ بسيطٌ أن تركب السواد وتجتازه دون أن تعكر مزاجه فتتحول لجثة طافية.
نصر لكنه ليس من يدِّي تابع لنوم البحر والريح ورحمة المهريين.
لا أعرف لماذا كنت أراجع الاسماء العتيقة منذ عام،
من أرض العثمانيين الأشداء الى أرض الإغريق والأساطير والحسنات عشيقات الآلهة.
كانت ليلة ككل الليالي عند عثماني يمتص جلدك لينجيك
أو يدّعي أنه ينجيك ويبيعك طول البقاء في أرض أوروبا وجناتها.
أيها الزبون.. عليك برمي الحقائق فالقارب هذا للبشر لا للأشياء الثمينة والذكريات.
أذكر يومها أنني رميت نصف ذكرياتي في فندق كئيب
عزيت نفسي ساعتها.
"أنا أهرب للأمام أريد أن أبدأ صفراً نظيفاً"
رميت شالاً لأمي واكتفيت بواحد وحقبة الثياب الشاهدة على سنة مضت.
قلت أكتفي بما امتلأ به القلب.
في ساعات التوتر تلك تخاف حتى من ثقل الذكريات
هل سيرها المهرب أو أنني سأنجو بها؟
هل سيحملها القارب المطاطي والبحر؟
خفت يومها من ثقل الذكريات لخمسين هارباً في أقل من سبعة أمتار.
أن تعكّر مزاج السماء ونهلك جميعاً.
يا لذكرياتنا المليئة بالأوزان والجمال الحزينة وجثث الأصدقاء والهفوات، غفوت في أحلامي يومها وبدأت معادلات
الموت والحياة والأتراك وأوروبا وكل شيء يلوك غفوتي.



استيقظت يومها على صوته: هيا العربة جاهزة.
 ابتسمت كما الجميع ساعة أو ساعتين سنذهل البحر بنجاتنا.
 نتخابر مع من نحب ونحن نعي دواخلنا، ربما هذه آخر أصوات نسمعها قبل أصوات الهواء يخرج من أجسادنا ونحن
 نغرق، نسلم بحرارة على الهاتف ونترحم على أيام خلت والهواجس تأكل الرأس حتى تنسى أنك تتكلم وأنتك ستغادر
 بعد دقائق من زحمة الضباب فيك، ربما وربما نعيش حياة جميلة وربما نستطيع أن نقتل القدر من تعب الذاكرة
 وربما نموت في سواد هذه الليلة وتستيقظ أمي دون أن تعلم أن البحر ضاجعني والملح غير ملامحي.
 وأموت وحيداً طافياً أنا وكل من معي.
 يجمعنا قارب وذكريات ثقيلة ويشتتنا مزاج البحر.
 ونموت فراداً وحيدين بلا أسماء فقد محتها ملوحة الماء، وأصبحت شاحبة كجثتنا.
 سعدنا سيارة المهرب الذي ابتسم لخلاصه من أسئلتنا ومن وجوهنا المتعبة وقلق عيوننا للأبد.
 لم يدقق كثيراً في ملامحنا وحتى هواجسنا كي لا يحزن إن كان الغرق نصيبنا.
 نعم فلدبه أفواج بشر تريد الخلاص بعدنا وإن كان رحيماً أو إنساناً فستكون التجارة خاسرة.
 في العتمة كاللصوص سعدنا للسيارة.
 هكذا كنت أحاول أن أنسج في مخيلتي كاللصوص نسرق الهجرة أيضاً يا ويحنا.
 لكن خاب ظني فقد كنا كالخراف التي لا يهتم أبداً إن ماتت على طريق المسلخ.
 وقفنا كالمسامير بانتظام، خمسون رجلاً وامرأة وطفلاً، في ثلاثة أو أربعة أمتار، أيدينا تحاول إمساك أي شيء في
 السقف كالمشقوقين.
 وأغلق علينا الباب، رائحة الخوف تفشت في هواء الشاحنة القليل.
 الحدقات توسعت لآخرها بفعل السواد وبدأتُ أسمع الأدعية كمن يلاقي يوم القيام.
 مشيت شاحنة المسلخ فينا ولم نعد نعلم.
 كومة اللحم تداخلت ببعضها وبعض الغثيان والغياب أحاطني.
 عشرون دقيقة كانت كفيلاً بترتيب كل الذكريات والندم ورسم الطريق القادم. هكذا دائماً أنجو من انتظار الوصول
 والوقت...



نعم عشرون دقيقة أنهت كثيراً من الألم.. كنت أخذت نفسي بالتفكير، أتعاطاه كإبر المسكّن.

فساقي المتعبة المتورمة كانت تنبّهني إلى أنني سأقع وأني ربما أؤذي طفلاً أو كهلاً يبكي.

منعهم السائق من الدعاء جهارة، فعيون البوليس تلتقط الأدعية والمهربين، يا لسخرية المفارقات وسهولة التقاطها.

صرخ بنا اخرسوا وصلّوا بقلوبكم.

مزيج قميء لاسترجاعه بعد عام.

نعم كانت نهاية المطاف هي المسلخ.. أو البحر.

كان نائماً كمخمور لا نجوم ولا قمر والضوء الوحيد خافت. كشمعة كان في أرض الإغريق.. أرض الميعاد على بعد

مرثي تستطيع أن تلمسه بيدك لكنه كان رغم الرؤيا قريباً كموت بعيداً كالحلم.

سجدنا على الأرض وانتظرنا الأوامر.. اصعدوا اثنين اثنين.. امتلأ القارب اللعين من نصف العدد.

بدأ الجميع بالقلق فالتزاحم ليس جيداً في هذه الدقائق وهنا جاء المهرب الأخير مبتسماً: أوتظنون أنكم في سياحة؟

هذا تهريب.. لم أكن سريع البديهة ساعتها للرد والمناكفة فخمرة الذكريات والتفكير والذهول من كل شيء كانت

تمنعي حتى من سماع صوته:

نعم يا سادة هذه تجارة ونصفكم فقراء والبعض دفع نصف القيمة ولا يمكن أن يكون القارب وارفاً واسعاً عليكم

وشتما بكلمة "نفرات زبالة".

ضحكت بشدة.. تزاحم حتى على الموت.. لا مجال للتراجع رغم أن الجميع شاهد المحرك المهترئ وازدحام القارب

وأنه من الممكن الغرق بعد أمتار هذه هي الحياة، لعبة نرد على روحك تصل لمرحلة القول: أريد الخلاص ولو بالموت

لا أملك المال لأبحث عن مقومات أفضل ومهرب رحيم، وترمي النرد دون انتظار النتيجة.

شققنا البحر كحلزون يذوب رويداً رويداً في الملح.

أضواء الإغريق كانت على مرمى اليد وأرض العثمانيين ورائحتها تبتعد رويداً رويداً.

إلى أن لفنا السواد تماماً وصرنا تحت رحمته في بحر إيجة وسمائه.

كان انتصاراً مزيفاً ساعتها عندما نجونا وربما كان انتصاراً مؤزراً لا أدري.. واليوم بعد عام كامل،

أتذكر الأسماء والوجوه التعب وتفرّد السواد وخوفه عندما يحتضنك بين البحر والسماء، ليست حكاية من حكايا الجدات



عن سفر برك أو الغولة التي أكلت أهل القرية، هي حكاية شعب مات وعاش في بحر إيجة هرباً من موت الحرب وأملاً بحياة أقل وطأة من زحام بلاده المختلة.

الكاتب: علي مصليح